عبّاس العقّاد
في مجمع اللغة العربيّة

ابراهيم مدكور

دخله في موكب حافل ، ضم فيمن ضم لطفي السيد ، وعبد العزيز فهمي ، والمراغي ، وحسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، واحمد امين ، وطه حسين . وجلس مع هؤلاء وغيرهم من علماء الشرق والغرب جنباً الى جنب ، يدرس ويبحث ، ويناضل ويكافح في سبيل النهوض باللغة ، والمحافظة على سلامتها ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر .

قضى في المجمع نحو ربع قرن جهير الصوت ، قوي الحجة ، عظيم الشكيمة ، صاحب رأي يعتدّ به كل الاعتداد .

كان يؤمن بالعربية الايمان كله ، ويرى انها غالبت الزمن ، وقويت على الاحداث . قضت على الفارسية في ربوعها ، وحلت محل السريانية والقبطية في الشام ومصر ، وطردت البربرية من أوكارها في شمال افريقيا ، وانشأت في الاندلس أدباً رفيعاً عمّر عدة قرون . وصمدت فيما بعد لغزو التركية والصينية ، وقاومت حبائل لغات المستعمرين من انكليزية وفرنسية وايطالية . وبقيت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين الطارف والتليد ، محافظة ومجددة ، تستمسك بأصولها ، ولا تأبى ان تخضع لحاجات العصر ومقتضياته .

وكان العقاد حجة في مفرداتها وتراكيبها ، فقه متنها فقهاً تاماً ، وحاول ان يربطه ببعض الأصول السامية . قرأ في كتب اللغة ما وسعه ، ووفر له منها زاد كبير . وللفظ العربي عنده جرس متميز ووزن خاص ، ان خرج عنه نفرت منه الأذن ولم تقبله الاسماع. اما الاسلوب فله فيه ذوق مرهف وحكم دقيق ، وكيف لا وهو منشىء اساليب ومبتكر استعمالات درس الأدب العربي في عمق ، وتتبعه في عصوره المختلفة ، وقارنه بالآداب

الأجنبية ، ووقف على تأثيره فيها وتأثره بها ، وكان امام مذهب في الادب المعاصر .

ولم يكن علمه بالانكليزية اقل من علمه بالعربية ، درسها منذ الصبا ، وعاش معها طويلاً في قراءاته وخلواته . احاط بنثرها وشعرها ، وألمّ بدقائقها ومزاياها ، وعرف منهـا مواطن الضعف والقوة . ولم يغب عنه جانب من جوانبها ، في نحوها وصرفها ، في املائها ورسم حروفها ، في بلاغتها ونظم اساليبها . ترجم عنها ، وعرّف ببعض كتابها وادبائها . وعقد بينها وبين العربية مقارنات دقيقة وممتعة افاد منها القراء ، وحظي بها المجمعيون بوجـه خاص .

ولم يتيسر لكثير ما تيسر له من اطلاع وقراءة في الادب والاجتماع ، والعلم والفلسفة . قرأ في العربية كما قرأ في الانكليزية ، ولا يكاد يظهر مؤلف الا ويسارع الى اقتنائه والوقوف على ما فيه . وبذا اضحى موسوعياً في عصر تقسيم العمل وتحديد مجال النشاط ، وأبى الا ان يكون – الى جانب الادب – فيلسوفاً يعارض الفلاسفة ، وعالماً يجادل العلماء في الكيمياء والطبيعة ، والجيولوجيا وعلوم الاحياء . وكأنه لم يكن يقنع في عالم الثقافـة بالقيود والحدود ، ولا يسلم بالتخصص الضيق ، ويكاد يرجع كثير من جـدله واختلاف الرأي معه الى هذه الناحية . ولا شك في ان القراءة المستنيرة تفتح آفاقاً جديدة ، وتهدي الى امور كثيرة .

بهذا الزاد الوفير من لغة وادب وعلم وفلسفة ، ادى العقاد رسالته في مجمع اللغة العربية فأحسن اداءها . اشترك في كثير من لجانه . وكان مناراً يهتدي به في مجلسه ومؤتمره . اتصل بلجنة الادب منذ البداية ، وصاحبها حتى النهاية . وقضى في جوائز الشعر باطراد ، وقدم من أجيزوا غير مرة في حفلات المجمع السنوية لتوزيع الجوائز ، وكم اتاحت له هذه الفرصة ان يعرض آراءه في فنون الشعر المختلفة .

ويمكن ان تردّ دراساته وبحوثه المجمعية الى ابواب اربعة : لهجات وفقه لغـة ، خط ورسم وكتابة ، أدب ونقد ، تأريخ وترجمة .

وقد عني بدراسة اللهجات ، وله فيها آراء وملاحظات ، وبخاصة ما اتصل بلهجات اعالي الصعيد واسوان التي احتفظت بأصول عربية لم تنفذ اليهـا في يسر مظاهر الحضارة الحديثة . ففي اللهجات العامية تستعمل الاضداد بقدر لا يقل عن استعمالها في الفصحى : يقال طرب بمعنى فرح ، وطرب بمعنى حزن ، ويقال للإناء الفارغ انه « مليان » ، كما

يقال في الفصحى المفازة للبيداء . وفي العامية ابدال يجري مجرى ذلك الابدال الذي قال به النحاة الاقدمون ، فيقال في بعض لهجات الصعيد زعتق زعيقاً ودبّح دبيحاً وكسّر كسيراً ، وهو في اوزان الفصحى التزعيق والتذبيح والتكسير . وفي العامية اخيراً اوزان ملتزمة للافعال والمصادر ، ففي اقليم اسوان يأتون بالمصدر من فاعل الى فاعال ، مثل حارب حارابا .

وكم كان العقاد يدعو الى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، لانها تعين على فهم التطور التاريخي للغة ، وتربطها بالاحداث السياسية والاجتماعية . وكان من اول المصريين الذين انضموا الى لجنة اللهجات في المجمع ، واستمر فيها حتى النهاية ، وطلب اليه ان يدرس لهجة اسوان وهو بها جدّ خبير .

وفي دراسة العامية ما يساعد على تقريبها من الفصحى ، ولا شك في ان مسافة الخلف بينهما تضيق باطراد ، ويعين على ذلك اليوم شيوع الصحافة والاذاعة والمسرح والسينما . وفي هذا التقريب ما ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين ، وما يسمح بان تدخل في صميمها مفردات نافعة من الفاظ الحضارة ، ويمكن اجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بدون تعديل او ببعض التعديل .

وفيه بوجه خاص ما يقضي على تلك الدعوى التي تردد من حين لآخر ، والتي ترمي الى تغليب العامية على الفصحى ، او الاكتفاء بها في الكلام والكتابة ، وما اشبهها بالفتنة تنام حيناً ويوقظها من يوقظها . ومن الغريب ان انصار هذه الدعوى يستشهدون عادة باللاتينية واللغات المتفرعة عنها ، وهو استشهاد يؤدي الى عكس ما يراد منه . ذلك لأن هذه اللغات في نشأتها ليست مجرد عامية اللاتينية ، بل هي لغات مستقلة نشأت كل واحدة منها نشأة خاصة بها ، وأصبحت في حكم اللغات المتفرعة على الآرية الجرمانية ، او على السامية في عهودها الأولى .

وحقيقة الأمر ان ليس ثمة فصحى بدون عاميتها ، او ان شئت هناك لغة ثقافة وكتابة ، واخرى لغة تخاطب وحياة شعبية ، وكلما ارتفع مستوى الثقافة العامة ضاقت المسافة بينهما . وثقافة العلوم والآداب لا تستغني عن لغة خاصة ، لا يحدها زمان ولا مكان ، بل تبقى على الدهر ولا تقف عند بيئة معينة . واللهجة الشعبية بطبيعتها موقوتة ، تتحول من جيل الى جيل ، ومن بلد الى بلد ، بل قد تتعدد في البلد الواحد . ولا حرج من ان تستخدم في بعض الفنون المحلية والموقوتة في المسرح والسينما ، لموضوعات لا تبقى

مع الزمن ولا تعم سائر الاقطار . اما الفصحى فهي لغة الثقافة الدائمة ، وسبيل الاتصال بين الشعوب العربية جميعها من الخليج الى المحيط .

ومن هـذه الدراسة اللغوية ، نود ان نشير ايضاً الى موضوعين فيهما جدة وطرافة : واولهما موضوع « السيمية » ، وهو من الدراسات الحديثة في المنطق واللغة ، ويقوم على تلمس علاقة بين حروف الكلمة ومدلولها ، بين اللفظ ومعناه . ولا شك في ان هنـاك كلمات في شتى اللغـات نشأت عن الحكاية الصوتية ، وتدل لذلك بلفظها على شيء من معناها . فالسيف سمي سيفاً لأنه يشق ، والقلم قلماً لأنه يقلم ، ويسمى الريشة في الاصطلاح الحديث لأن أداة الكتابة عند الافرنج كانت تتخذ من الريش . وعنـدما تكلم الانسان الاول كانت اللغة مزيجاً من الاصوات الطبيعية كالتأوه والصياح والضحك ، ومن اصوات الحكاية في مقطع او في عدة مقاطع ، ومن ملامح الوجه واشارات الرأس واليدين ، ومن طبقات الصوت ومبلغ ما فيه من الخفوت والاشباع . ثم انتقل الانسان من تجسيم الكلمة على هذا النحو الى تجريد المعنى ، وفي مرحلة التجريد هذه يتعذر ان تعقد صلة بين الصوت والمعنى . واذا كانت هنـاك كلمات تدل بلفظها على شيء من معناها فان هناك اخرى لا تلحظ فيها هذه الصلة ، وليس بين حروفها ومدلولهـا اية علاقة ، ونخطىء ان حاولنا ان نطبق السيمية على مفردات اللغة جميعها . والمرء يتكلم ويفكر ، ولتفكيره شأن في لغته كما ان لكلامه شأناً في تفكيره ، والالفاظ التي توحي بها افكار معينة لا يلحظ فيها النطق ولا الصوت مطلقاً .

والواقع ان الدراسات السيمية لا تزال بادئة ، ولم تصل بعد الى المذهب المفصل والنظرية المقررة ، وان فتحت باباً مفيداً من ابواب الدرس والبحث ، ووجهت النظر الى ضرورة مراجعة وسائل التعبير وتنبيه الذهن الى اخطائها . ويرجى ان يصقلها الزمن كما صقل غيرها من دراسات اخرى .

وعالج العقاد ايضاً موضوع « الزمن في اللغة العربية » ، ويلاحظ بحق ان علامـات الزمن في الافعال دليل ارتقاء اللغة . «فاللغة التي تدل على الزمن بعلامات مقررة في الفعل اعرق واكمل من اللغة التي خلت من تلك العلامـات ، وبمقدار الدلالة تكون العراقـة والارتقاء » . وقد شاع بين اللغويين الغربيين ان اللغات السامية – ومن بينها العربية – ناقصة في دلالة الافعـال على الازمنة . ويحرص العقاد على ان ينقض هذه الدعوى من اساسها ، مبيناً ان في العربية الفاظاً تدل في دقة على لحظات الليل والنهـار ومواسم السنة

المختلفة . ومن علامات تطورها ان الفعل الماضي هو الاصل ، ويأتي الفعل المضارع بالتصريف . وفي لغات أخرى من ارقى اللغات يشيع استعمال المضارع اولا ، ويؤخذ منه الماضي بإضافة حرف او مقطع او تغيير الصيغة . وقسمة الزمن فيها الى ماض ومضارع اوضح وادق من قسمته الى ماض وحاضر ، لأن الحاضر شيء نبحث عنه فلا نجده ، او نجده على الدوام متصلا بالاستقبال . وهذا ما فطن له نحاة العرب ، وسموه مضارعاً يدلّ على الحال متصلاً بالاستقبال . « فاللغة العربية لغة الزمن بأكثر من معنى واحد : لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه ، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن في عصرنا هذا وفيما يليه من عصور » .

وفي الخط العربي جمال وروعة ، ويعد بحق بين الفنون الجميلة ، ويؤدي المعاني والاصوات اداء صادقاً . ولم يحل رسم الكتابة قط دون تقدم العرب ونهوضهم في الماضي ، ولا يمكن

بريشة وضاح فارس

ان يحول اليوم. وليست صعوباته اشد من صعوبات لغات اخرى يتكلمها ملايين من الناس، ففي الانكليزية مثلاً حروف تكتب ولا تنطق ، واخرى تنطق على وجوه متعددة ، ولا ادل على هذا من ان معجماتها تحرص على ان تضبط نطق الكلمة ، ودرجة امتداد الحركات فيها وموقع النبرة في مقاطعها .

ولم يتردد العقاد في ان يقف موقفاً حاسماً من استعمال الحروف اللاتينية يوم ان اثير موضوعها في مجمع اللغة العربية ، فرفضها رفضاً باتاً ، وعارض في ذلك عبد العزيز فهمي وهو خصم عنيف ، ورد على حججه المفحة بحجج اخرى لا تقل عنها بياناً وقوة. واعلن ان الحروف اللاتينية تقطع صلتنا بالماضي ، بل وبالبلاد العربية في الحاضر ، وهي صلة وثيقة وعزيزة ، تقوم على وشائج شتى وتراث خالد .

واذا كان في الحروف اللاتينية ما ييسر القراءة ، فانها لا تعين في شيء على تيسير الكتابة ، وهي الهدف الاصلي . ذلك لانها لا تستطيع ان تؤدي الأصوات العربية كلها ، ولا بد ان تضاف اليها حروف اخرى تزيد الأمر تعقيداً ، وتشغل حيزاً اكبر في المطبوع والمكتوب . حقاً انها تعين على رسم الحركات من فتح وضم وكسر ، وفي الامكان تحقيق ذلك بواسطة علامات الشكل العربية المألوفة . والمهم هو ضبط الكلمات قبل كتابتها ، ولا سبيل الى ذلك الا بفهم اللغة نفسها ومعرفة قواعد نحوها وصرفها .

والواقع ان ما في الكتابة العربية من صعاب لا يرجع لا الى الحروف ولا الى الحركات، وانما مرده الى طبيعة اللغة نفسها . لانها لغة اعراب واشتقاق ، تختلف فيها الكلمة من الماضي الى المضارع، ومن الفاعل الى المفعول. واولى بنا ان نختصر قواعد النحو والصرف، لكي يحيط بها اوساط الناس، ويقاربوا الصواب جهد المستطاع. وتكفينا مقاربة الصواب، لان العصمة من الخطأ لن تتيسر في لغة ما ، ولن تتيسر ابداً في عمل يتناوله جميع الناس من خاصة وعامة .

وللعقاد دراسات في الادب نعم بها المجمعيون ، واستمعوا اليها في شوق ورغبة ، ونكتفي بأن نذكر اثنتين منها . فعرض « لموقف الادب العربي من الآداب الاجنبية في القديم والحديث » . وعنده انه « يمكن ان يقال على وجه الاجمال ان تأثره بها في الزمن القديم كان على اكثره من ناحية الحضارة ، وان تأثره بها حديثاً كان على اكثره من ناحية الثقافة » .

ويراد بناحية الحضارة كل تأثر يأتي من ملابسة الأمم في اصول المعيشة وعادات المجتمع، ولا يستلزم الاطلاع على آداب لغاتها . وقد اعتز العرب بلغتهم كل الاعتزاز في الجاهلية ، ولم يتجهوا نحو تعلم لغة اخرى . ثم جاء الاسلام ، ونزل القرآن بلغتهم فأضاف الاعتزاز بالعقيدة الى الاعتزاز باللسان . ولكن العرب خالطوا حضارات مختلفة ، وان لم يتكلموا بالسنتها ، واخذوا عنها ما اخذوا . وكان لهذه المخالطة اثر في الادب ، واغلب الظن ان اوزان القصيد ومعانيه قد افادت قديماً من حضارة الفرس والروم . ولأمر ما شاع بحر الرمل والبحر الخفيف والبحر المتقارب لاول مرة في الحيرة ، حيث امتدت آثار الحضارة الفارسية، وهي البحر تستخدم في الرقص والايقاع. ولا شك في ان اثر الحضارات الاجنبية بعد الاسلام كان اشد واعمق، لتشابك العلاقات واتساع الرقعة وتنوع المراسم والعادات. فدخل في اغراض الشعر كثير من مظاهر الحضارات التي تجمعت في بلاد الدولة الاسلامية، ومنها وصف المهرجانات والمراسم ورحلات الصيد .

ويراد بناحية الثقافة كل تأثر يأتي من الاطلاع على آداب الامم في لغاتها والتوفر على دراساتها ، واوضح ما يكون ذلك في عهد النهضة العلمية والبحث والتمحيص. وقد نشط البحث العلمي في صدر الدولة العباسية، ولكن الاتصال الثقافي بين الادب العربي والآداب الاجنبية في العصر الحديث اقوى واوضح . وكانت اللغتان الفرنسية والانكليزية اقرب مسالك الثقافة الاوربية الى البلاد العربية . فقرأ ادباء العرب كتب القوم ، وهي تضيف مزايا التعبير العلمي الى التعبير الادبي . وكان من أثر ذلك دقة في الاداء ، وتخصيص للفظ بمعناه ، واتساع افق الشعر والنثر .

وكيفما كانت اسباب هذا الاتصال ، فان العربية بقيت لغة حية قوية ، لها قوام ثابت وغذاء متجدد ، تأخذ عن غيرها دون ان تفنى فيه .

واستوقف العقاد ازمة الشعر التي لفتت انظار نقاد الادب الغربي ، ورأوا انها تصعد الى الثمانينات من القرن الماضي ، وحاولوا ردها الى اسباب مختلفة . فذهب بعضهم الى انها وليدة تدهور حضاري ، وانحطاط اجتماعي ، وبلبلة في الأفكار ، واضطراب في المثل والمبادىء . وردها بعض آخر الى قيام المجتمع الصناعي الذي يتوارى فيه الذوق المطبوع والشعور المستقل والخيال الطموح .

ويلاحظ العقاد بحق ان ازمات الشعر كثيرة في جميع الأمم ، الا انها ليست كأزمات العلم في دلالتها الاجتماعية . فقد يبلغ شاعر القمة في عصر ما ، ولا يستلزم ذلك ان يظهر

بعده في العصر التالي شاعر اعظم منه ، وليس في عدم ظهوره ما يدل على ازمة او على نكسة عامة. ولعل الامر يرتبط هنا بالافراد اكثر مما يرتبط بالهيئات والجماعات ، وما الشعر الا باب من ابواب الفن يتطلب عبقريات واستعداداً خاصاً .

وهو ايضاً تعبير عن العواطف الانسانية ، وتلطيف للواقع بالأخيلة الصادقة والاحلام الرفيعة . وقد شاركه اليوم في ذلك امور شتى ، ووجد الناس منفذاً لعواطفهم ومسرحاً لأخيلتهم في كثير مما يرون ويسمعون من مخترعات العصر الحديث ، في المسرح والسينما والمذياع والتلفزيون ، والصحف المملوءة بالاخبار الطريفة والحوادث المثيرة والمغامرات المشوقة . وفي كل هذا ما يصرف عن الشعر ، او يغني عنه .

اما التاريخ والترجمة فقد ساهم فيهما العقاد بنصيب وافر ، وكم استقبل في مجمع الخالدين من زملاء ، وكم ودع آخرين! وكانت احاديثه في الاستقبال والتأبين دراسات ممتعة وتأريخاً جامعاً .

وشاء به القدر ان يستقبل ابراهيم المازني ، اخا الصبا وزميل الشباب والكهولة ، وان يودعه ولم يمض على استقباله عام او بعض عام . وفي استقباله يقول : « ليس من حقي ان اسميها كلمة تقديم ، فان المازني مقدم ومتقدم ، له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه رسل شتى تتقدم به الى كل مكان تصل اليه لغة الضاد . وليس من حقي ان اسميها كلمة تعريف ، فانني لو ذهبت اعرّف الناس بالمازني ، لم آمن ان اسمع من العالم العربي كله ، كلمة يستعيرها من الفرزدق ، ليقول لي : العرب تعرف من عرفت ... لكني استطيع ان اقول عن المازني شيئاً جديداً فيما يتصل بي ، وشيئاً طريفاً فيما يتصل بالمجمع » . وقد قال عنه فعلاً ، وأفاض في القول .

ويوم ان ابّنه تفتحت امامه ابواب الكلام مرة اخرى ، وبدأ يقول : « رحم الله اخانا المازني ، وعوض الله الادب والبلاغة خيراً فيه . لقد كان منذوراً للادب بكل ما نفهمه اليوم من معنى هذه الكلمة ، وقد كان الاقدمون اذا قيل لهم عن احد من الناس انه منذور لهذا المعبد او هذا الحرم ، فهموا من ذلك انه قائم في خدمة معبده طول حياته ، وانه لا يملك ان ينحرف عن خدمته باختياره ، لان ارواح المعبد وجنوده ترده اليه اذا انصرفت وجهته عنه ، فلا تبقى من نفسه بقية لغير الوفاء بنذره . وهكذا كانت صلة المازني بالادب ، صلة نذر وقسمة . علم منذ صباه الباكر انه يهوى الكتابة وصناعة

القلم ، ولكنه علم كذلك انها صناعة لا تجدي على صاحبها شيئاً في معيشته. فخيل اليه ان يعطي مطالب العيش حقها ، فلم يلبث غير قليل حتى تبين له انه للادب وحده ، وان الادب يلاحقه اينما ذهب ، فلا يتركه حتى يعيده الى جواره .

ثم يفصل القول في المازني الاديب : الشاعر والناثر ، الصحفي والمعلم ، الروائي والقصصي ، المؤلف والمترجم . يحلله في كل ذلك ، ويبين خصائصه ومميزاته . وليس في مقدور كثيرين ان يؤرخوا للمازني مثلما ارخ ، ولا ان يصفوا انتاجه على نحو ما فعل . وسيبقى تأريخه له مصدراً هاماً من مصادر الادب المعاصر .

والى جانب هذا كله ، في مناقشات العقاد وتعليقاته آراء وملاحظات قيمة ، وتحتفظ بها لحسن الحظ محاضر المجمع وملفاته . وقد تزاملنا نحو ثماني عشرة سنة ، واشهد انه لم تثر امامه مشكلة من المشاكل الكبرى في الادب واللغة الا واتخذ فيها موقفاً وادلى برأي واضح . ويتميز باتجاه عام ومنحى ثابت ، يقدس العقل ويحكمه ويسير وراءه ، منطقه صارم وحجته بالغة . وفي سعة اطلاعه ووفرة معلوماته ما غذى حواره وجدله بغذاء لا ينفذ . وكان دون نزاع اميل الى المحافظة ، فلا يسلم بالشعر الجديد او المنثور ، ولا يشعر بحاجة الى تيسير نحو او كتابة . وهو على كل حال ممن يرون ان طبيعة الاشياء تأبى الطفرة ، وان كان لا بد من تجديد فليؤخذ بحكمة ، وليوكل الى ذوي الرأي والخبرة . وهو لهذا يرضى لنفسه ان يجدد ويبتكر ، في حين يتردد كثيراً في قبول تجديد الآخرين . غذى اللغة والادب بنشاطه الجم وانتاجه المتصل خارج المجمع وداخله .

وفي الهيئات العلمية والادبية عادة اتجاهات واضحة المعالم وجبهات بينة الملامح ، ولقد كان العقاد جبهة قوية في مجمع اللغة العربية . لا يكاد يثار امر الا وتشرئب الانظار اليه ترتقب ما يبديه وما يلاحظه . واليوم ، ونحن نفتقده ، نذكره دائماً بما خلف من درس نافع ورأي قيم .